الحفاظ على الأجيال

سؤال: هل يمكن أن تشرحوا لنا كيف نحافظ على جيلنا ضدّ عمَليات التخريب التي يقوم بها المفسدون؟

الجواب: منذ عهد آدم عليه السلام وحتى اليوم اختار الكفرُ طريق التخريب والهدم، واختار المؤمنون دائمًا طريق البناء والتعمير، واليوم يجري الشيء نفسه، لذا نرى مفكر العصر الأستاذ النُّورسي رحمه الله الذي أحسّ بهذا الهمّ في أعماق قلبه يقول: "لذا فمقاومة خدام القرآن الكريم وحدهم تلك التخريبات المريعة إنما هي عمل خارق جدًا، فلو كانت هاتان القوَّتان المتقابلتان على مستوًى واحدٍ من القوَّةِ؛ لكنتَ ترى في التعمير والبناء -الروحي والأخلاقي- خوارقَ وفتوحاتٍ عظيمة جدًا"(١٤).

فلا يقوم مَنْ ليس لهم حظٌّ من الإيمان إلّا بعمليات التخريب والتدمير، إذ يقومون باستغلال مشاعر الإنسان وغرائزه لِجَرِّهِ وإسقاطِهِ في مستنقَعِ الشهوةِ، ويُثيرون فيه الرغبات إلى أن يُصبحَ أسيرًا وعبدًا لحياة مادّيّةٍ بَحْتة، ويزيّنون له المنصب والجاه ويُغرّرون الناس، وهكذا تقوم جبهة الكفر بعمليات هدم وتخريبٍ واسعة بوسائل بسيطة، فتغوي أجيالًا من الشباب، ولو كانت الأمور تجري بهذه البساطة لصالح أمّتنا لأُحرزت نجاحات كبيرة بعد كلّ هذه الجهود المبذولة، في حين أننا نقوم بإعادة بناءِ وتعمير قلعة كبيرة جدًّا تهدّمت جدرانُها وحصونها منذ قرون عديدة.

(١٤) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **سيرة ذاتية**، في منفى قسطموني، ص ٣٤٥.

openkalem.com

تأملوا، لقد اهتزت قواعد التوحيد في جميع بلدان العالم الإسلامي، وظهر الكفر بالله وإنكاره، وتعرّض الرسول ﷺ للسخرية والاستهزاء، واستُهين بالدين، وأُهين القرآن الكريم؛ مصدر النور الذي أضاء الكون واعترف أعداؤه بإعجازه، بل فقدَ الدين حتى عند بعض المؤمنين أولويّتَه وثِقَلَه، وتعقّد كلّ شيء...

إن الواجبات لَتتعاظَمُ وتكثرُ في مثل هذا العهد، كما تعظم قيمة تلك الواجبات وأهميتها، وإنَّ سَحْبَ لبنةٍ واحدةٍ من مكانها على يدِ المخرّبين كفيلٌ بسقوطِ وانهيار البناءِ كاملًا، وعند ذلك يجد المسلمون أنفسهم مضطرّين إلى إعادةِ تشْييد البناء لبنة لبنة وحجرًا حجرًا مجدّدًا، وحراسةِ الجزء المشيّد من البناية أيضًا، ومما يجبُ علينا ذكرُه هنا أننا نلمس في عَمَلِنا هذا يدَ العناية الربانية، وهذه الأسطر تذكّرني بإحدى ذكريات العالِم "باسْكال"، لقد كان إنسان وَجدٍ وعِشق، ولكنه لم يكن محظوظًا؛ يقول أحد مفكرينا عنه: "إنه أضاع فرصة الركوب على الباخرة الأخيرة ولم يستطع اللحاق بها...". أجل، لقد اقترب من ميناء سيدنا محمد ﷺ ولكنه لم يستطع رميَ نفسه في أحضان ذلك النور، هذا موضوع آخر، وما أريده هنا هو إيراد إحدى ذكرياته لإيضاح مسألة متعلّقة بنا.

يقول باسكال: "كنتُ راكبًا عرَبة يجرّها حصانان، وكانت العربة تسيرُ بمحاذاةِ نهر "السين"، وفجأةً فقدتُ السيطرة على الحصانين، فبدآ بالعدْو نحو النهر بجنون... لم يكن هناك أيّ أملٍ في النجاة، إذ كان مقدّرًا لي أن أسقطَ في النهر، ولكن شيئًا غيرَ متوقَّعٍ حدثَ، إذ انقطعَ الرباط ما بين الحصانين والعربة وسقط الحصانان في النهر، أما أنا فقد تمّ إنقاذي بِيَدَين نورانيّتَين، حيث بقيت أنا والعربة على حافة النهر".

وبسبب هذه الحادثة عزفَ "باسكال" عن منهجِ حياته السابق المليء باللهو والمجون، وقضى بقية حياته متفرّغًا في الدَّيرِ -كراهبٍ- متأمِّلًا ومتفكِّرًا، أما نحن فقد رأينا هذه الأيدي النورانية مئات المرّات في الحوادث التي جرت معنا، وليست مرّةً واحدةً كما حدث لباسكال؛ لذا فإننا نحمد الله تعالى حمدًا لا نهاية له على نِعَمِه ورعايته.

وبينما يقوم الطرف المعادي بتدمير الشباب بأفلامه ومسرحياته وخَمّاراته وملاهيه الليلية، فإننا نرشد الشباب ونطلب منهم أشياء تبدو في الظاهر صعبة، إذ نقول لهم: "صلّوا وصوموا وضحوا ببعض رغبات أنفسكم، لا تعيشوا لأنفسكم، بل لِمَن حولكم، وضحّوا بأنفسكم من أجل الأجيال القادمة"، ومع كلّ هذه المطالب الصعبة ظاهريًّا نرى إقبال آلاف الشباب علينا، وتمسكهم بإخلاصٍ بمبادئ الإسلام، لقد قلنا قبل سنواتٍ بأن التفكُّك والانهدامَ سيكون مصير الاتحاد السوفيتي والصين، وأصبح هذا من المعلومات الاعتيادية الآن، ومسائل عديدة قيلت في الأمس ولم يفهمها أحدٌ حقَّ الفهم ونراها الآن قد تحققت وأصبحت عينَ اليقين، فهناك تبدّلات وتغيرات مهمة جدًّا نشاهدها حولنا، لقد بدأت الإنسانية تذوب أمام الدين كذوبان الثلج تحتَ أشعّة الشمس المتوهّجة، وبدأت قلعة الكفر تفقد مواقعها في الأماكن المرتفعة منحدِرةً إلى أسفل، أما برج إيماننا فهو يرتفع بسرعةٍ إلى الأعلى.

ولا بدّ أنّ أمورًا كثيرةً ستتغير في السنوات القادمة وسيأخذ العالم الإسلامي موقعَه اللائق به بين الأمم إن شاء الله تعالى.

علينا أن نقوم بما يجب علينا القيام به، أما حفظ أجيال الشباب فهو شأنٌ من شؤونه تعالى، ونحن نأمل من رحمته الواسعة أن يصون هذا

الجيل الناشـئ الذي صاحبَه منذ نشأته كثيرٌ من الآلام والمعاناة، وألّا يدعَ براعم الأمل فريسـةً للوحوش، وفي الواقـع لو لم تمتدّ يد عنايته ورحمته لَما كان هذا بمقدورنا. أجل، لقد تفضّل علينا ربنا سبحانه بإحسانه ولطفه، وسـاقنا إلى مجالاتٍ لا نعرفها أبدًا، وبعد مدةٍ أدركنا أنه كان من الواجب علينـا الدخـول إلى تلك السـاحات، ونحن ندعو الله تعالـى أن يديم علينا عنايتـه ومعونتـه حتى إنجاز هـذا العمل كاملًا غير منقـوص، إنه على كل شيء قدير.

obeikandl.com

الغُنْمُ بالغُرْمِ

سؤال: كيف نستطيع صيانة أنفسنا من أخطار الحياة ونزوات الشباب؟

الجواب: إنّ هذه المسألة لتُعتَبَرُ من أهم مشاكل إنساننا الحالي، فنحن في غمار الحياة يرزح معظمنا تحت ضغط عواطف الشباب التي تؤثّر على مشاعرنا السامية، وقد أصبح من الصعوبة بمكانٍ الآن تطبيق الحقائق الإسلاميّة السامية كما أرادَ لها النبيّ ﷺ، ولكن مجاهدة النفس والشيطان فيها من الخير ما فيها؛ فكلما زادت الصعوبات وادلهمّت الخطوب كلّما زادَ ثواب العاملين وأجرهم.

أليست قسوةُ الظروف التي أحاطت بنضال أبي عمارة حمزة بن عبد المطّلب ﷺ هي التي جعلته أسد الله وسَمَتْ به إلى مرتبة سيّد الشهداء؟ ألم يشاهد قلّةَ عدد المسلمين وكثرةَ عدد الكفار؟ لكنّه ومع ذلك اندفع إلى القتال معتمدًا على قوّة إيمانه ولم يعبأ بالموت، لقد كان ذلك وسيلةً مهمةً للسمو به إلى المقام العلوي وأفق سيد الشهداء.

إن الآثام التي تزعجنا الآن كانت موجودةً أيضًا في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عنهم؛ فالنساء كنّ يَطُفْنَ حول الكعبة عاريات، وكان الخمر والرشوة والميسر والربا ينخر في روح المجتمع ويُنهِكُه، ولكن الصحابة أدبروا عن هذه الفواحشِ متوجّهين إلى الإسلام، كانوا هم أيضًا بشرًا، يحملون مشاعر وغرائز البشر مثلنا؛ لكنَّ تَضْحيتهم بكل أهواء النفس هي التي سمت بهم وجعلتهم أعظم العظماء، لقد هجروا الفواحش جميعها في ذلك العهد واختاروا سلوك حياةٍ طاهرةٍ نيّرة وساروا خلف الرسول الأكرم ﷺ على الرغم من جميع المخاطر التي كانت تحفّ بهم؛

فاكتسبوا فضائل كبيرة واستحقّوا بذلك أن يكونوا نجوم هداية لمن جاء بعدهم.

وهذه المهالك والمخاطر موجودة اليوم أيضًا؛ لذا فقد دُعي مفكّر القرن العشرين بديع الزمان سعيد النُّورسي الذي كان يدعو الناس في هذا العصر إلى حقائق الإيمان والقرآن في مجلسٍ روحاني بـ"رجل عصر النكبة والهلاك"، ولو نادى الرسول ﷺ جيلَ هذا القرن لقال: "تعالوا! تعالوا يا جيل المهالك والمخاطر"؛ لأننا إن تفحصنا السوق والشارع والحياةَ الاجتماعية والتجارية والفرد والعائلة والمجتمع والمدرسةَ المكلّفةَ بمساندة كلّ هذه الوحدات الاجتماعية، وتناولنا جميع الهيئات والمؤسسات واحدةً واحدةً، وقمنا بإصدار تقييماتٍ حولها؛ لَكان هناك وصفٌ واحد فقط ينطبق على الجميع وهو وصف "بائس، في حالة يُرثى لها".

أينما تذهب أو تتجول لا تستطيع الحيلولة دون التلوّث ببعض الآثام، ولا تستطيع أن تعبر في الحياة الاجتماعية من جهة إلى أخرى دون أن تتلثم روحك عدة مرات، ودون أن تهتزّ حياتك القَلْبية، إن العيش اليوم وفقًا للمنهج الإسلامي أصبحَ أصعب من المشي على الجمر وعبور وديان من القيح والصديد، إذًا فنحن جيلُ عهدِ النكبة والهلاك، وأهواء النفس المركّبة في طبيعتنا والإغراءات النفسيّة والجسمانية تترصدُنا كالعقرب لكي تلدغنا، وهذه الأهواء والشهوات تتغذّى وتتقوّى على الدوام من المحيط الفاسد الذي ولدت فيه وترعرعت، ومن المحتمل في كل حين أن يقوم هذا العقرب بلدغِنا وتسميمنا، ومع تقبّلنا لكلّ هذا فإننا نقيّم حالنا وفقًا لقاعدة "الغُنْمِ بالغُرْمِ"، ونجد السلوى في المغانم عن مغارمها،

بـل نفرح مـن ناحيةٍ مـا؛ لأنَّ الأجرَ والجـزاء يكون على قـدرِ المصاعب والمصائب والبلاء، فإن كان الصحابة رضوان الله عليهم وُفِّقوا إلى تجاوز تلك الشـروط الصعبة، فاسـتحقّوا أعلى المراتـب؛ فإننا نأمل من صاحب الرحمـة الإلهية سـبحانه وتعالى أن يوفّق المؤمنيـن الحاليين ويعينهم كي يَصِلوا إلى السعادة نفسها.

لا شـكّ أن هناك أخطاءً وذنوبًا ارتكبناها -دون قصدٍ- في هذا الزمن الذي تزاحمت فيه الآثام وسَـهُل الدخول فيها والتلطخ بها، ولكن واجبنا هـو ملازمة بـاب وعتبة الرحمـة والحضرة الإلهية، والاسـتمرار والثبات، واسـمحوا لي هنا بسـرد إحـدى ذكرياتي كوسـيلة للتعبير عن مشـاعري: عندمـا كنـت طفـلًا كان لنا كلـبٌ يرافقُ أغنامنـا ويلازمُ بـاب بيتنا بهدف الحراسـة، كنـتُ أعجـبُ مـن إخلاصـه وألعـب معـه وأحتضنـه وأُطعمه باسـتمرار، لا أناقش هنا مدى الصواب في هذا من الناحية الصحّيّة، وإنما أُريدُ نقلَ بعض مشاعري، وذكرياتُ الطفولة هذه كثيرًا ما ترِدُ إلى خاطري فأرفـع يديّ بالدعاء إلى ربي وأتضـرّع إليه قائلًا: "اللهم كما كنتُ صديقًا لذلك الكلب لإخلاصه ليس إلّا، فاغفر لي أنا القطمير الواقف على بابك، الخاضـع لك دون سواك".

ومن الممكن أن نقولَ الشـيءَ نفسـه بالنسبة للشخصيّة المعنويّة، فثمة خيـر يقـوم به بإخلاص كل مؤمن حمل على عاتقه مهمّةَ خدمة دينه وأمته رغـم كل ما وقـع فيه مـن ذنوبٍ وعثرات، وتقديرًا لهذا لن يطردهم الربّ الكريم سبحانه وتعالى من رحمته.

نحن نقرّ ونعترف بتقصيرنا ونواقصنا، ولكننا في الوقت نفسه نأملُ أن يتجاوز الحقُّ تعالى عن تقصيراتنا بمقتضى رحمته الواسعة التي لا حدودَ

لها، واعْترافُنا هذا يشير إلى نَدَمِنَا وتوبتِنا، والله تعالى يقبل الرغبةَ الصادقة في التوبة ولا يردّها.

كان هـذا تلخيصًـا للواقـع، ولنقف الآن قليلًا مـع الأمور التي يجب الانتباهُ إليها:

أولًا: يجب السـير بكلِّ حذَرٍ على مثل هـذه الأرضية الزَّلَقَةِ والخطرة مـن جميـع الأوجه، فكما يتم المشـي بكل حذر فـي الأراضي المزروعة بالألغام أو في مدينة للأعداء، كذلك يجب إبداء الحذر نفسه عند التجول في الأسواق والشوارع اليوم.

ثانيًا: قبل الخروج إلى الشارع يجب الاستعانة بكل ما يصفّي مشاعرنا وأحاسيسنا ويؤثّر على عالمنا العاطفي، قد يكون هذا بالقراءة أو المشاهدة أو الاسـتماع إلى شيء أو محاسبة عميقة للنفس، أي يجب ألّا نخرج إلى الشارع قبل الدخول في مثل هذا الشدّ المعنوي.

ثالثًـا: علينـا أن نتجنّب الوحدة، ونتخذ صديقًا يرصدُ تصرفاتنا ويعيننا على عالمنا الروحي، فنُلازمه -إن أمكن- عند خروجنا إلى الشارع.

رابعًـا: علينـا أن نصحب معنـا كتابًا دينيًّا أو مصحفًا أو ما شـابه ذلك فـي رواحنـا ومجيئنا وفي الأماكن التي نبقى فيهـا؛ حتى يعيننا على حياتنا الروحيـة ويقـوم بوظيفة الصيانة والحفظ والتذكير لنـا، فهذه المواد تكون سـترًا يحجبنـا عن الآثـام وتكون وسـيلةً للمراقبـة وللتذكيـر الدائم، وإنَّ المفعمَ بمشاعر المراقبة الداخلية نادرًا ما يقـع في الإثم.

خامسًـا: عنـد اقتـراف أي ذنب أو عنـد الوقوع في أي خطـإٍ علينا أن نبـادرَ بالندم وإعلان التوبة حـالًا؛ لأن أقلّ القلوب حملًا للذنب هو قلب المؤمن، فالأخطاء فيه مؤقَّتة وزائلة، وهي كالغيوم التي تحجبنا عن الشمس

فترة قصيرة، لكنّها سرعان ما تمضي وتزول، وكلّما تأخّرت التوبة كلّما اسودّت الأرواح وانفتحت السبل للذنوب والآثام الأخرى مما يُسهل اقترافَها والوقوعَ في شِباكِها، ومن ثم على المرء أن يحول دون حدوث ذلك، وأن يفيق لنفسه، فيسرع بالرجوع إلى رحمة الله تعالى مهما كانت طبيعة وماهية الذنوب والأخطاء التي اقترفها.

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ، لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شَيئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا دَعَاهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ (سورة هُود: ١١/١١٤)، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: "**بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً**"(١٥).

أما صلاة التهجد فهي النور في عالم البرزخ؛ وإن إسراعَ العبد إلى مناجاة ربّ العباد في هذا الوقت الذي يحلو فيه النومُ لَمِن أكثر العوامل محوًا للسيّئات؛ لأن تضرُّعَ القلب المفعَمِ بالخوف والرجاء له ﷻ في منتصف الليل البهيم سيلقى -دون أدنى شكٍّ- قبولًا من الله تعالى، يكفي أن يتمّ هذا التضرّع والدعاء بإخلاصٍ ونيّة صافية، فإذا ما وقفنا بين يدي الله ﷻ في الصلاة وأعلنّا عبوديّتَنا له بكلّ خشوعٍ وخنوعٍ استطعنا أن نستجلب رحمته ﷻ حتى يَغفر لنا ما نقترفه من زلّاتٍ وأخطاء بين الصلاة والصلاة، علاوةً على أننا يجبُ علينا السعيُ إلى الرضا الإلهيّ عن طريق النوافل والتهجّد.

(١٥) صحيح مسلم، التوبة، ٤٢.

أجل، ففي نفس الوقت الذي تُحاصِرنا فيه الآثام من كلّ حدبٍ وصوب فإننا نُحاطُ بإيجابيّاتٍ تستطيعُ إزالةَ مخلّفات تلك السلبيّات، وحالُنا الآن التي تُشبه حال الصحابة تمنحُنا فرصة الاقتراب من منزلتهم ومكانتهم، صحيح أنهم كانوا يحسّون بأنفاس الوحي، إلّا أننا إن أمكننا التخلّص من قيود الزمان واستطعنا أخذَ أماكننا في الصف المحمدي خلفهم فسنضمن بذلك خَلاصنا، ندعو الله تعالى ألّا يخيب رجاءنا... آمين.

obeikandl.com

الحِفاظُ على الشدّ المعنويّ

سؤال: ما السبيل إلى تماسك شدّنا المعنوي المتراخي، والتوجه به مرة أخرى إلى غايتنا المثالية؟

الجواب: الشـدّ المعنوي عنصر مهمٌّ جدًّا لأيّ مؤمن، ويعني الإقدام على الخير والإحجام عن الشر، وعلى ذلك فهو -من جهةٍ- يعني: تفعيل السـبل الخاصـة بالخدمـة، وتشـكيلَ آلية معينـة عاملة على الـدوام، ومن جهـة أخرى يُقصد بـه: مقاومة المعاصي وجبهـات التخريب بعزمٍ وثبات وإصرار.

أو قُـلْ: هو الانقياد إلى الله ورسـوله والتمسـك بما جاء به الرسـول، والفرار من الكفر والكفران والكذب كالفرار من الأسد.

ويوضح هذه المسـألةَ هذا الحديثُ الشـريف الذي يرويه سيدنا أنس بن مالك ﷺ: "**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**"(١٦).

فأنت ستصبح عاشقًا والله ورسوله هما المعشوقان، ولن تحبَّ الناسَ إلّا لله، وهـذه هـي الوجهـة الإيجابية للمسـألة، أمـا وجهتُها السـلبية فهي ضرورةُ اتخاذ موقفٍ معيَّنٍ ضدَّ ما يوصل إلى الكفر والكفران.

(١٦) صحيح البخاري، الإيمان، ٨.

أجـل، علـى المؤمن الحقيقـي أن يكون -بقدر حبّه للإيمان- ذا شـدّ معنـوي وعـزم أكيـد على عدم سـلوك طريـق الضلالة حتـى يحافظ على ذاتيّته، غير أن المحافظة على الشـد المعنوي أصعب من كسـبه ونيله، من أجل ذلك كان الثبات والعزم شرطين أساسين في هذا الموضوع.

قد يتراخى الشـدّ المعنـوي أحيانًا بالأنس والألفة بـه والاعتياد عليه، وقد يدخل في النفس أحيانًا بعض الصفات الذميمة مثل الأنانية والحرص والطمـع وحـب المنصب والسـكون إلى الراحة والدعـة، التي تؤدّي إلى انطفاء جذوة الحبّ والشوق في الخدمة وفساد الروح وشلل الإرادة.

فلو أن هناك من يسعى سعيًا حثيثًا في سبيل دعوة الحق، ولا يأبَهُ بليل أو نهـار، ثـم فرّ مـن الخِدمة بعد ذلـك مختلقًا المعاذير عنـد كل دعوة له فهذا يعني أن ثمة ارتخاءً قد طرأ على شَدِّهِ المعنوي وانحراف نحو الفساد والانحطاط، بيد أنه لا يمكن تحقق مثل هذه المهمّة العظيمة التي تتطلّب شدًّا معنويًّا قويًّا على أيدي أناسٍ فقدوا شدّهم المعنوي.

إن المؤمنين الذين اتخذوا من الإيمان أجنحةً يُحلّقون بها نحو الآفاق هـم في غاية الحَذَرِ إزاء العمل والشـدّ المعنـوي وغيره من الأمور، وكثيرٌ منهم حريٌّ بنا أن نُقَبّل جباهَهم لما يقدّمونه من شـدٍّ معنويٍّ يُشـكّل مثالًا لأصدقائهـم، ولا يمكننـي أن أنسـى أحدهم عندما قلت لـه ذات يوم: "لا تبـرحْ بيتـك ثـلاثَ ليالٍ، وأنجز المهمـة التي كلفتُك بها، فـردّ علي قائلًا: أسـتاذي، أنـا لا أسـتطيع أن أبيتَ فـي منزلي منذ آخر عمـلٍ عزمتُ على القيام به من أجل الخدمة".

وهكذا لا بد من المحافظة على بقاء الشدّ المعنويّ مشدودًا لا يتراخى، فبالشدّ المعنويِّ يمكننا الوصول إلى رسول الله ﷺ وأصحابه الأخيار.

إن الأطبـاء على سـبيل المثال يوصوننا ببعـض الأمور لمقاومة بعض الأمراض، ويطلبون منا اتباع هذه التوصياتِ دون اعتراضٍ أو نقاشٍ، وعلى ذلـك نُحْقَـنُ بالحُقَـنِ ونتناولُ الأقراصَ التـي كتبوها لنـا وإن كنّا كارهين لها، وهكذا فَبِقَدْرِ ما نُظْهِرُه من حساسـيّةٍ حيال الالتزام بالوصفة العلاجية للأمـراض الماديّة بِقَـدْرِ ما يجب أن تكون عليه حساسـيتنا في اتباع كلام الحكماء في مسألة الشدِّ المعنويّ.

والآن سـأحاول هنـا أن أشـير إلـى بعـض الوصايـا فيما يتعلّـق بهذا الموضوع:

أولًا: عـدم الركون إلى العزلـة: "**فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَـا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**"(١٧).

فمن ينفصل عن مجتمعه ويبتعد عن أصدقائه وأحبابه فهو مُعرَّض لا محالةَ إلى افتراس النفس والشيطان والتهامِهما.

يبـدأ أمـرُ الوحدة لدى الشـخص أوّلًا بالتحسّـر على عدم اسـتطاعته القيـام بعملـه، وهـذا أمـر جيد في الواقـع، لكنه غيـرُ كافٍ، ولا يُكتب له الديمومة، ثمّ يتطوّر الأمرُ لِيَصِلَ إلى الاسـتهانة بما يفعله الأصدقاء، ومـع تطوّر الموقف شـيئًا فشيئًا يقوم ذلك الشخص بإنكار أفكار الدعوة ومُثُلِها العليا كلّيّةً، وادّعاءِ فضلةِ وعدم ضروريّة هذه الأنشطة، فمثل هذا الشخص مسـكينٌ ومُعرَّضٌ للمحو، فإن لم نَحُلْ بينه وبين الوحدة التي أوصلته إلى تلـك الحالة مـن البُعْدِ عن المجتمـع؛ فمن الصعـب أن يتخلَّص من تلك العاقبة السـيّئة، وعلى ذلك فلا بد وأن توصدَ كلّ الأبواب التي يُحتمل أن تؤدّي إلى مثل هذه النتيجة.

(١٧) سنن أبي داود، الصلاة، ٤٧.

ثانيًا: البحثُ بعزمٍ وإصرارٍ دائبين عن التجدّد العلمي والمعرفيّ، فالله ﷻ عرضَ لنا الكونَ كتابًا منظورًا، ثم أرسل إلينا الأنبياء وأنزل عليهم الكتب السماويّةَ هدايةً وتعليمًا لنا لما في الكون، ثم ظهر من بعدهم آلافٌ من الأولياء والأصفياء والعلماء الذين تحلّقوا حول الهالة نفسِها، وشرعوا في شرح الكتابين: الشريعةِ، والكونِ؛ كلٌّ حسب استعداده وقابليته ومشربه، كانوا يعملون كالنحل؛ يحطون وينهضون من زهرة إلى أخرى ليجمعوا الرحيق الشافي ويضعونه في أقراص المعرفة المتنوّعة، وحتى نُخضِعَ أعمالنا إلى التوافقِ مع الحِكمة الإلهية فعلينا أن نربط كلّ ما يجري في الكون بغاية وهدف مُعَيّن، وأن نقيّمه وندرُسَه بما يتوافق مع مقتضى الحكمة الإلهية، فإن لم يستطع الإنسان أن يتبع السنة الفطرية، أو يشارك معرفيًا في التجدُّدِ الحادِثِ في الكون كلَّ لحظة، أو ينسجَ النسيجَ نفسَه فلسوف يخسر حيويته المعرفية بالتتابُعِ شيئًا فشيئًا، وسرعان ما يتعرّض لانحطاط وفسادٍ غير متوقّع، وبعد مدّةٍ لا يجد نفسَه صالحًا لأي عمل.

ثالثًا: التفكُّر الدائمُ في الموت، والذي نُطلق عليه "رابطة الموت"، وهذا أيضًا يعد من أهمّ العوامل في المحافظة على شدّنا المعنوي، وإنّ "التفكر في الموت قبل الموت" و"الوصول إلى الحياة الحقيقيّة" تسميتان لمسمّى واحد، أو هما وجهان لعملةٍ واحدة، فلا سبيل إلا الموت لاستئصال رغباتنا وأهوائنا التي لا تنفد أو تهدأ، إضافةً إلى ذلك ينبغي أن يكون هناك اعتقاد بأن كلَّ أحبابِنا ينتظروننا من وراء القبر، وأن السعادة والفرحة الحقيقيّة في نهاية مَمَرِّ القَبْرِ.

أوَليست آخر نقطةٍ وأسمى فكرة تزدان بها غاية رجل الدعوة هي ملاقاة الأحباب ومرافقتهم والنظر إلى الجنة ورؤية جمال الله ﷻ؟!

إذًا على كلّ فردٍ منا أن يتحوّلَ -في الطريق الذي يؤدّي بنا إلى هذه النتيجة- إلى فرس عربي أصيلٍ يُسابق الريح، وأن نواصل السير في طريقنا دون توقّف أو راحةٍ حتى تخور قوانا.

أجل، مثل فرس عربي... لأنه لا يعرف التعبَ، ولا يختلق الأعذارَ، يجري ويجري حتى تخور قواه فيهلك ويموت، ومن ثم فإن ذريعَتَه الوحيدة هي الموت، ولذا أحبُّ هذا الحصان حبًّا جمًّا، وأودّ أن يتشبه كل رجال الدعوة به.

رابعًا: علينا أن نختار لأنفسنا صديقًا يوقظنا ويرشدنا إلى الخير والصلاح إذا ما لاحظ علينا أيَّ تراخٍ أو دَعَةٍ، وهذا من العوامل التي تعمل على تيقُّظِ الشدِّ المعنويّ لدى الفرد.

وقد تستصعب النفس هذا الأمر لأوّل وهلةٍ، ولكن لا ريب أنه مهمّ جدًّا لحياتنا الدينية، وتتمخّضُ عنه نتائج إيجابية.

فالصديق الصالح مثل ينبوعِ الخضر، إن شعرتم بشيء من الدعة في نفوسكم أو برجفةٍ في قلوبكم أو ببلادة في أحاسيسكم فاهرعوا إليه وقولوا: "أَوْصِنا"، شاطروه همومَكم فلا ريب أنه سيأخذ بأيديكم ويخلّصكم من الدُّوامات والمتاهات كافة، وسيوصلكم إلى الإقليم المشرق من جديد.

قد تشعرون في ظاهر كلامه بِلُذُوعَةٍ وامتعاضٍ داخليّ، ولكن المهم هو النتيجة، فبمجرّد أن تتحمّلوا أوّل ضربة مشرطٍ منه تذهب عنكم كل آلام الجروح التي تؤلمكم بالحقيقة أكثر من مائة ضعفٍ من ضربات المشرط العادي، ويحلّ الذوق الروحاني محلّ الآلام.

أنا شخصيًّا لجأتُ -في فترة ما- إلى أحد أصدقائي الذين جلسوا أمامي وأخذوا الدرسَ عني فاستشرته في هذه المسالة فأوصاني بدورِه بأشياء، فلما التزمتُ بها لم يمسّني أيّ ضررٍ، بل على العكس استفدْتُ وانتفعْتُ.

ولا بأسَ في أن تلجؤوا أنتم أيضًا إلى الحيلة نفسها، بشرطِ أن يتمّ تناولُ المسألةِ في إطار التفاني والإخلاص.

خامسًا: قديمًا عبّر أجدادنا بعبارة موجزة للغاية عن أن الحديد الذي يُعالَج لا يشوبه الصدأ فقالوا: "الحديد المعالَجُ لا يشوبه الصدأ"، وهذا المَثَلُ يجري أيضًا على رَجُلِ الخدمة، ومن ثم فإنني أرى في هذا الموضوع سبيلًا آخر للحفاظ على الشدّ المعنوي.

فالإنسان مرتبطٌ بما يقوم به من عمل من الناحية النفسية، أما ما يقوم به الآخرون من عمل فلا يهمّه مباشرة وإن كان ما يقومون به هو على الحقيقة أهم من عمله، لذا فيجب استغلال نقطة الضعف هذه لدى الإنسان من خلال تبنّيه من الأعمال ما له علاقة بخدمة الدين والأمة، وإنّ انتشار هذا الأمر لهو ضرورة لا يجوز تركها.

فإذا ما حافظْنا على تطبيق المواد التي ذكرناها آنفًا بات عندنا إن شاء الله شدٌّ معنوي نشِطٌ مثل قوسِ ألوان الطيف، ووصلنا إلى أفق رجل الدعوة الحركيّ.